والصورة ثقيلة ومثقلة، تقول أشياء كثيرة، وتشير إلى «شيء ما قد تغير». والشيء أشياء. لقد ترك الاحتلال بصماته واضحة على جملة المستويات الاجتماعية. ففي المستوى الاقتصادي حدث تغير في بنيان العلاقات التي كانت مسيطرة قبل الاحتلال. تراجعت الزراعة. وتراجعت معها قيم الحياة الفلاحية، وتزايدت الأيدي العاملة في المعامل الإسرائيلية. ويمكن القول إن الاحتلال قد أدى إلى اندثار جزء أو أجزاء من الطبقات القديمة وظهور طبقات جديدة، ولدت وتطورت في علاقات الاحتلال، الذي غير مكان العمل ونوع العمل، وعلاقة العامل بعمله، وأدى هذا التغير إلى اختلاف نظرة «الطبقات» لبعضها البعض بسبب تغير شكل الطبقات: علاقة الزراعة بالصناعة: «ميل الميزان الطبقي». وقد أدت التحولات الاجتماعية بالضرورة إلى تحولات «مماثلة» في السلوك والأحكام والقيم: «احتلال أم انحلال». وبكلمة واحدة: قام الاحتلال الإسرائيلي بإعادة تشكيل الشرط الفلسطيني.

تكتب «الصبار» تغيرات الواقع الفلسطيني في حاضره و«نزوعه القادم»، حتى نكاد نظن أحياناً، أنها تقول لنا ان المجتمع الفلسطيني يسير «نحو حياة أفضل في المأكل والمشرب والملبس»، لكن «الظن» ليس سهلاً، لأن سحر تطمح في روايتها إلى رسم المجتمع في كل مستوياته: تغيرّ الواقع وحركته المتناقضة، أي سيرورة الوعي في سيرورة العلاقات الاجتماعية. والسؤال هنا: كيف تتشخصن هذه العلاقات وتجد معادلها الروائي؟ كيف تتحول إلى شخصيات تعبر – تحكي – في وعيها وممارستها عن الواقع الجديد من حيث هي علاقة منه وفيه، أثر له وأثر فاعل فيه؟

تستبين العلاقات في عدة شخصيات تنتمي إلى أصول اجتماعية مختلفة، وتحمل أشكال وعي مختلفة، تتحدد بتلك الأصول، وتفارقها، لأن الاحتلال «ألغى» تلك الأصول وأنتجها من جديد، وفي هذا الوعي يعيش البعض إشكاليته بشكل مجرد منقل بالمعايير الأخلاقية والمثالية: «أسامة». وهناك بعض آخر يعيش مسألة الوطن دون أن يمتلك الوعي الايديولوجي الموائم لها، يعيش حب الوطن بلا نظرية أو تنظير، والبعض هذا هو «الفلسطيني اليومي»: «أبو صبري، زهدي، شحادة، أبو شحادة». البعض الثالث يمارس العمل الوطني في صموده، وفي سعيه المستمر لإيجاد صيغة النضال الممكنة: «عادل».

ندخل مع هذه الشخصيات، ونبدأ بالقديم منها، بتلك الشخصيات التي تنتمي إلى زمن آخر، إلى زمن مضى وانقضى، وانقطعت علاقته مع المستقبل لأنها مستحيلة. من هذه الشخصيات «أبو شحادة»، شيخ عجوز يتمايل بجسده الأعجف ككيس من نخالة، يدخن سجائره الرخيصة ويمضي في ذاكرة لا تعرف إلا الماضي ولا تتعرف على حاضر لا يعترف بها. يعيش في مزرعة مهجورة مع كلبه العجوز، كيان ضامر يتزايل بهدوء واستقامة، أو يتزايل مع ملامح قديمة تنمحي في واقع القهر الجديد. «أبو شحادة» عجوز وفقير لا يذكر من ماضيه إلا قهر السيد، واستغلال فلسطيني آخر يتزايل معه. وأمام حاضر القهر وماضيه يقف العجوز صامتاً، يقتصد في الكلمات، ويردد قوله الضروري: «أنا داري؟». يلخص العجوز في كلماته اللامبالية حاضره وماضيه: «طول عمري كنت أجير، لا لي أرض ولا ما يحزنون، وابني كان أجيرا ولم يزل» (ص ٥٠). أجير يمضي، ويمضي معه صاحب المزرعة (أبو عادل الكرمي)، وإذا كان العجوز الفقير يمضي صامتاً، فإن صاحب المزرعة يتشبث